شوقي

لمصطفى صادق الرافعي

هذا هو الرجلُ الذي يُخيَّلُ الي أن مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضعَ فيهِ رُوحها المتكلم ؛ فأوحت له ما لم توحِ لغيره وأنابتهُ عما لم ينطق لسواه ووهبتهُ من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمَّة تريد أن تكون شاعرةً لا على قدر رجل في نفسه، وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي .

شوقي . هذا هو الاسم الذي كانَ في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع ، ومتى ذُكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدلَّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة . مترادفات لا في وضع اللغة ولكن في جلال اللغة

رجل عاش حتى تمَّ وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ودليلُ العبقرية على أن فيهِ السرَّ المتحرك الذي لا يقف ولا يكلّ ولا يتطع نظامَ عمله كأن فيهِ حاسَّةَ نحلة في حديقة. ويكبر شعره كلما كبر الزمن فلم يتخلَّف عن دهره ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنهُ مع الدهر على سباقٍ واحد وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطورُ أطوارهُ في النموّ فلم يجمدْ ولم يرتكسْ ، وبقي خيالُ صاحبه الى آخر عمره في تدبير السماء كمَخيَّلة الغمامة سحابةً كثيرة البرق تمتلئ ممطرٌ ينصبُّ من ناحية ويمتلىء من ناحية

والناس يُكتبُ عليهم الشباب والكهولة والهرم ولكن الاديب الحقَّ يُكتب عليهِ شبابٌ وكهولةٌ وشباب ، إذ كانت في قلبهِ الغاياتُ الحية الشاعرة ما تنفكُّ يلدُ بعضُها بعضاً الى ما لا انقطاع له فانها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبهِ ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب

* * *

اقرر هذا في شوقي رحمه الله وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميزة في أدبه وشعره ، ولكن هذا الرجل انْفَلَتَ من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتسابر في الجوّ فأصبحت مصر بهِ سيدة العالم العربي في الشعر وهي لم تذكر قديماً في الأدب الاّ بالنكتة والرقة وصناعات بديعية صلفقة ولم يستفيضْ لها ذكر بنابغة ولا عبقري

وكانت كالمستجدية من تاريخ الخواطر في العالم حتى ان أبا محمد المنتاب بولي الدولة صاحب ديوان الانشاء في مصر للظاهر بن المستنصر (وقد توفي سنة ٤٣١ هـ) وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار في السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه — سير لرسول التجار الى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها فيستشيرهم في تخليد هذا الادب المصري بدار العلم ان استجادوه وارتضوه . كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها في مكتبة بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها في عصبة الامم....

وهذا أحمد بن علي الأسواني امام من أئمة الأدب في مصر توفي سنة ٥٦٢ هـ) وكان كاتباً شاعراً يجمع الى علوم الادب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدوّن شعر المصريين فجمع من شعرهم (وشعر من نشأ عليهم) اربع مجلدات كأن الشعر المصري وحده الى آخر القرن السادس للهجرة في العهد الذي لم يكن ضاع فيه شيء من الكتب والدواوين لا يملأ اربع مجلدات ... على اختلافهم في مقدار المجلدة فقد تكون جزءاً لطيف الحجم والاسواني نفسهُ يبلغ ديوانهُ نحو مئة ورقة

وشعره الحسن المعروف بالمهذب الاسواني المتوفى سنة ٥٦١ قال العماد الكاتب انه لم يكن بمصر في زمنه أشعر منه وسارت له في الناس قصيدة سموها النواحة وصف فيها حنينه الى اخيه وقد رحل الى مكة وطالت غيبته بها وخيف عليه . فارجز شعر اهل مصر في زمنه وحادثة النواحة تجعله في هذا المعنى اشعر من نفسه على أنهُ مع هذا لم يقل الا من هذا :

يا ربعُ أين ثوى الأحبة يمّموا ... هل أنجدوا من بعدنا ام أتهموا
رحلوا وفي القلب المعنّى بعدهم ... وجدٌ على مرّ الزمان مخيّمُ
وتعوّضتْ بالانس نفسي وحشةً ... لا أوحش الله المنازل منهمُ ....

ولولا ابن القارض والبهاء زهير وابن دقاق الاسكندري وامثالهم وكلهم اصحاب دواوين صغيرة وليس في شعرهم الا طابع النيل اي الرقة والحلاوة ، لولا هؤلاء في المتقدمين لاجدب تاريخ الشعر في مصر . ولولا البارودي وصبري وحافظ في المتأخرين وكلهم كذلك اصحاب دواوين صغيرة لما ذكرت مصر بشعرها في العالم العربي . على ان كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا ان يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقي وحده

والعجب ان دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون الا صغيرة كأن طبيعة النيل تأخذ في المعاني كأخذها في المادة فلا فيض ولا خصب الا في رقت بعد اوقات وفي ثلاثة اشهر من كل اثني عشر شهراً . ومن جمال القراشة ان تكون صغيرة وحسبها عند نفسها ان اجنحتها منقطة بالذهب وأنها هي نكتة من بديع الطبيعة

على انك واجدٌ في تاريخ الادب المصري عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الاليانة ولا الاتيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء ان كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل، وهي قصيدة نظمها ابو رجاء الاسرائي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان شاعراً فقيهاً اديباً عالماً كما قالوا، وزعموا انه اقتص في نظمه أخبار العالم وقصص الانبياء واحداً بعد واحد. قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك فقال ثلاثين ومائة الف بيت.... وما أشك ان هذا الرجل وقع لهُ تاريخ الطبري وكتب السيَر وقصص الاسرائيليات فنظمها متوناً متوناً .... وافنى عمره في ١٣٠ الف بيت حوَّلها التاريخ الى خبر مهمل في ثلاثة اسطر

***

كل شاعر مصري هو عندي جزء من جزء ولكن شوقي جزء من كل ؛ والفرق بين الجزءين أن الاخير في قوته وعظمته وتمكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل . ولم يترك شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه وذلك من الادلة على انه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهرهم وارتفع عليهم بامور كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبِّرة التي لا حيلة لاحد أن يأخذ منها ما لا تعطي او يزيد ما تنقص او ينقص ما تزيد . وقد حاولوا اسقاط شوقي مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه .... ويرى بها ان شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر وما هو بمنزلة شاعر وشعره

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ في نعمة الخديوي اسماعيل باشا ونثر له الخديوي الذهب وهو رضيع في قصة ذكرها شوقي في مقدمة ديوانه القديم ثم كفله الخديوي توفيق باشا وعلمه وانفق عليه من سَعَة وأنزل نفسه منه منزلة اب غني كما يقول شوقي في مقدمته ثم تولاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول

شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

واذا انت فسرت لقب شاعر الامير هذا بالامير نفسه في ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مُرْهَفٌ مُعَانٌ باسباب كثيرة ليكون أداة سياسية في الشعب المصري تعمل لاحياء التاريخ في النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها واقحامها في معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة ، وتصلُ الشعر بالسياسة الدينية التي توجهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة اوروبا في تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الاسلامية . ولا يخرج لك شوقي من هذا التفسير على انه رجل في قدر نفسه بل في قدر أميره ذلك وكان ممتلئاً شباباً يغلي غلياناً ومُعِدّاً يومئذٍ لمطامح بعيدة ملفعة حشوها الديناميت السياسي....

كنت ذات مرة أكلم صديقي الكاتب العميق فرح انطون صاحب الجامعة وكان معجباً

بشوقي اعجاباً شديداً فقال لي إن شوقي الآن في أفق الملوك لا في أفق الشعراء. قلت كأنك تنبيه من الملوك والشعراء معاً اذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئاً ولو قلت ان اولئك لم يعدّ شيئاً. انما الرجل في السياسة الملتوية التي تعمله بالامير هو مرة كوزير الحربية ومرة كوزير المعارف

وهذه السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من اول عهده واتجه شعره في مذاهبها من الوطنية المصرية الى النزعة الفرعونية الى الجامعة الاسلامية فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعري — هي بعينها مادة نقائصه فقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس في ذلك بما وسعته قوته الى غيرة اشد من غيرة الحسناء تقشعرّ كلّ شعرة منها اذا جاءها الحسن بثانية . وهي غيرة وان كانت مذمومة في صلته بالأدباء الذين لقّبوه بالجمر . . . ونحن منهم ، غير انها ممدوحة في موضعها من طبيعته هو اذ جعلته كالجواد العتيق الكريم يتنافس حتى ظله فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه وناقس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه وناقس ذاته ايضاً ليجعل شوقي اشعر من شوقي. وعندي أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فرجعه الى آثار تلك السياسة الملتوية التي ردّت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والاسباب مدبرة مقبلة مستهدية في كل مجاهلها بابرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها في الطبيعة الا أنف الثعلب المتجه دائماً الى رائحة الدجاج ....

ومؤرخ الادب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئاً ان هو لم يذكر ان هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديوي توفيق والخديوي عباس لمصر كالدلتا بين فرعي النيل . وما اصابه المتنبي من سيف الدولة مما ابتعث قريحته وراش اجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الادب — أصاب شوقي من سمو الخديوي عباس اكثر منه فكان حقيقاً ان يساوي المتنبي أو يتقدمه ولكنه لم يبلغ منزلته لان الخديوي لم يكن كيف الدولة في معرفته بالادب العربي ورغبته فيه . وسر المتنبي كان في ثلاثة اشياء: في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير ، وفي ممدوحه الاديب الملك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم في أفق عصره المتألق بنجوم الادب التي لا يمكن ان يظهر بينها الا ما هو في قدرها ولا يتميز فيها الا ما هو اكبر منها ولا يتركها كالمنطقة الا شمس كشمس المتنبي تتفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية

ولقد والله كان هذا المتنبي كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء وهل أدل على ذلك من ان ابا اسحاق الصابي شيخ الكتاب في عصره يراسله أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم فيرسل اليه المتنبي : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولكني ان مدحتك تكرمك الوزير (يعني المهلبي) لاني لم أمدحه فان كنت لا تبالي هذا الحال فانا أجيبك ولا

أريد منك مالاً ولا من شعري عوضاً . فأين في دهرنا من تشعره عزّة الادب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستيقنة ان الدنيا في انتظار كنهها ؟

على ان شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه الا (الجمهور الشعري) وكل بلاء الشعر العربي أنهُ لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرف الى معانٍ فردية من ممادح عظيم او حبيب عظيم او سقوط عظيم .... حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخلة في الحدود لابسة الثياب . ومن ذلك ينبع الشاعر وليس فيه من الاحساس الا قدر نفسه لا قدر جمهوره والا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود فلا تجد في طبعه قوة الاحاطة والتبسّط والشمول والتدفق ولا تؤاتيه طبيعته ان يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فاذا هو على الخاطر لعارض يأخذ من عنفوره ولا يحسن أن يوغل فيه واذا هو على زوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثهُ ولا يتقدم فيها نظره واذا نفسه تمرُّ على الكون مرّاً سريعاً واذا شعره مقطع قطعاً واذا آلامهُ وأفراحهُ أوصاف لا شعور وكلمات لا حقائق وظلٌّ طامس ملتقى على الارض اذا قابلتهُ بتفاصيل الجسم الحي السائر على الارض

واجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري اعراقه عنصر عربي وآخر تركي وثالث يوناني ورابع شركسي وهذه كثرة انسانية لا يأتي منها شاعر الا كان خليقاً ان يكون دولة من دول الشعر . وال هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي في عينيه كأن هذا دليل طبيعي على ان وراءهما عينين للمعاني تراحمان عيني البصر . وما لم يكن التركيب العصبي في الشاعر مهيأ للنبوغ فاعلم انهُ وقع من تقاسيم الدنيا في غير الشعر وليس في الطبيعة ولا في الصناعة قوة تجعل حنجرة البابل في غير البلبل . ومع كل ما تقدم فقد أعين شوقي على الشعر بفراغه له اربعاً واربعين سنة غير مشترك العمل ولا منقسم الخاطر على سعة في الرزق وبسطة في الجاه وعلو في المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربي والاوروبي والتركي والفارسي . وان تنس فلا تنس ان شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه فسافر ورحل وتقلب في الارض وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها ببصره ما بين الاندلس والاستانة وظهيرهُ على ذلك ماله وفراغهُ ، وانما قوة الشعر في مساقط الجو ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة ، والطبيعة كالناس هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل وفي بلد هي كالانثى الجميلة وفي بلد هي كالرجل المصارع ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشدّه الا إذا أطعمته مع صنوف الاطعمة اللذيذة المفيدة ألوان الهواء اللذيذ المفيد

وعندي انهُ لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم في طبقة الفحول من شعراء العالم الاَّ اذا أعيد تاريخ شوقي مهذباً منقحاً في رجل وهبه الله مواهبه ثم تهيأ لحكومة المصرية مواهبها

* * *

والكتاب الاول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعهُ وصحح نشأتهُ الادبية هو بعينهِ الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكرناهُ في مقالنا عنه اي كتاب ارسيلة الادبية للمرصفي. وليس السر في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة فهذا كله كان في مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي . ولكن السر ما في الكتاب من شعر البارودي لانه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب ان كان الصواب وعلى خطإ ان كان الخطأ . وقد تصرَّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ثم لا يجيئون الاَّ بشعر الصناعة والتكلف ولا يُخايد الجبلُ منهم الاَّ لما رأى في عصره ولا يستفتح غير الباب الذي فُتح له . الى ان كان البارودي وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة لا يحسن منها شيئاً ، وجهدهُ هو كلُّ العلم الذي حوَّل الشعر من بعد فيا لها عجيبة من الحكمة وهي دليل على ان اعتماد الناس ليست الا خضوعاً للقوانين نافذة على الناس . واكبَّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر التحول اذ لا تحتاج الحفظ الى غير القراءة ثم المحاكاة والمزاولة ، وكانت فيهِ سليقة فخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والعصر الاول من الحفظ والرواية وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بالظام من الله تعالى ليخرج بهِ لعربية حافظ وشوقي وغيرهما . فكل ما في الكتاب انهُ ينقل روح المعاصرة الى روح الاديب الناشيء فتمنحهُ هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء فاذا هو على ميزة وبصيرة واذا هو على الطريق التي تنتهي بهِ الى ما في قوة نفسه ما دام فيهِ ذكاء وطبع . وبهذا ابتدأ شوقي يحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما الى طريقة غير طريقة الآخر والطريقتان معاً غير طريقة البارودي

تحول شوقي بهذا الشعر لا الى طريقة البارودي فانهُ لا يطيقها ولا تتهيأ في اسبابه وخاصة في اول عهده وكأن لغة البارودي فيها من لقبه اي فيها البارود .... ولكن تحوَّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من امثال الليثي وابي النصر وغيرهما فترك الاحياء وانطلق وراء الموتى في دواوينهم التي كان من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد كالمتنبي وابي تمام والبحتري والمعري ثم اهل الرقة اصحاب الطريقة الغرامية كابن الاحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلعفري والحاجري ثم مشاهير المتأخرين كابن النحاس والامير منجك والشرقاوي . وقد حاول شوقي في اول أمره أن يجمع بين هذا كله فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والابداع وإحكام التوليد مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحب الصحيح

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون اكبر همي الاَّ البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه

وكيف ألمّ وكيف لخّص وكيف كان المعنى مستهلّه وهي ابدع ام تلد وهل هو شعر بالمعنى شعوراً فالتقط نسجه وجاء منها ام نقله نقلاً حرفاً من الكتب . وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ويدقق النظرة في أسرار الاشياء ويحسن ان يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ويتغلغل بها ويستصحب للناس من وحيها ما يام فكره استرسال وترجيم في الخيال واخذ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجملة هل هو ذاتية تمرّ فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون طامع الحياة في نفسها حياة من نفسه ام هو تبعيّة كالسمار بين طرفين يكون بينهما وليس منهما ولا من احدهما ؟ في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ولا يؤديك الى هذا التاريخ الا ذلك المذهب اليه إن اطلته أما تاريخ الشاعر نفسه فما اسهله إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره وليس في تأريخ ما كان الا نقله كما كان

واذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره فيه تلك الموهبة التي أسميها حاسة الجرس إذ يتلمح بها القرائح معاني ما وراء المنظور ويستنزلون بها من كل معنى معنى غيره أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ ٢٣ سنة على ما اظن وهي من شعره السائر:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناء
ما رآها تناسبت اسمي لمّا كثرت في غرامها الاسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم تكُ بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

دع غلطته في قوله (تميل عني) فان صوابها تَمِل إذ هي جواب إن الشرطية ولكن تأمل كيف استخرج معانيه، وانا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثاني والرابع لا إكباراً لمعناها فيهما لاشيء عندي ولكن اعجاباً بموهبة شوقي في التوليد فانه اخذ البيت الثاني من قول ابي تمام

أثبتُ فؤادها أشكو اليه فلم أخلص اليه من الزحام

فرّ المعنى في ذهن شوقي كما يمر الطراء في رسغه وجاء نسياً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها لان الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق فاتحة للبيع والشراء لا يقلب امرأة يحبها . بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنه ليس عضواً في جسمها بل غرفة في بيتها . . . . وقد سبق شاعرنا ابا تمام في هذا المعنى في ابداعه وذوقه ورقته

والبيت الرابع من قول الشاب الظريف

قف واستمع سيرة الصبّ الذي قتلوا فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى حبّ فسام الوصلَ فامتنعوا فرام صبراً فأعيا نيله فقضى

وهذه « فامتنعوا » تجر الى القبر ونعوذ بالله منها .... وما كنت أعيب على شوقي ضعفه في فنون الادب فان المويلحي الكاتب الشهير انتقد في جريدته مصباح الشرق ابيات (خدعوها)

عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ ذرّع شوقي وتحوّل عليه ليسلك من النقد مع ان كلام المويلحي لا يستغرق دقيقة من ارتفاع نصف متر ... ومن سخيفة الادب عندنا بل من اكبر اسرار ضعفه ان شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد وانهم يفرون منه فراراً ويعتبرون على تفاديه وانهم لا يحسنون غير الشعر فلا البارودي ولا صبري ولا حافظ ولا شوقي كان يحسن واحد منهم ان يدفع عن نفسه او يكتب فصلاً في النقد الأدبي او يحقق مسئلة في تاريخ الأدب

ومن معاني شوقي السائرة :

لك نصحي وما عليك جدالي آفة النصح أن يكون جدالا

وكرره في قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا وأذى النصح أن يكون جهارا

والبيتان من شعر صباه ايضاً وهما من قول ابن الرومي :

وفي النصح خيرٌ من نصيح معاودٍ ولا خير فيه من نصيح معاتب

فصحح شوقي المعنى وابدل المعاتبة بالجدال وذلك هو الذي تعجز عنهُ ابن الرومي . ومن ابداعه في قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان

يتعادون من ذعرٍ تفرُّ دورُهم وتنجو الرواسي لو حواهن شِعْبُ

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى ويقضم بعض الارض بعضاً ويقضب

وهذا خيال بديع في الغاية جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك بل من هول القيامة ونحو مع ذلك مولّد من قول ابي تمام في وصف كرم ممدوحه أبي دلف

تكاد معانيه تهشُّ بعراصها فتركبُ من شوقٍ الى كل راكب

فقاس شاعرنا على ذلك واذا كادت الدار تركب الى الراكب اليها من فرحها فهي تكاد تفرّ مع المنهزم من ذعره. ولكن شوقي بنى فأحكم ورسا على ابي تمام بالزيادة التي جاء بها في البيت الثاني

ومن احسن شعره في الغزل :

حَوَتْ الجمال فلو ذهبت تزيدها في الوهم حسناً ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لو استزادت من الحسن اليها لما أصابت مزيدا

غير ان شوقي قال لو ذهبت تزيدها في الوهم والشاعر قال لو استزادت هي فلو خلا بيت شوقي من كلمة (في الوهم) لما كان شيئاً ولكن هذه الكلمة حققت فيه المعنى الذي تقوم عليه كل فلسفة الجمال فان جمال الحبيب ليس شيئاً الا المعاني التي هي في وهم محبه فالزيادة تكون من الوهم وهو بطبيعته لا ينتهي فاذا لم تبق فيه زيادة في الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى في سور كثيرة في كتبنا رسائل الاحزان والسحاب الاحمر واوراق الورد فانظره فيها

ومما يتمم ذلك البيت قول شوقي في قصيدة النفس

يا دُمية لا يستزاد جمالها زيديه حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسي موقعاً وله من اعجابي محل فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت وهي في موضعها كما ينقطع الخط ثم يتصل وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل . وقد علمتَ مأخذ الشطر الاول أما الثاني فهو من قول ابن الرومي

يا حسن الوجه لقد شلتَهُ فاضمم الى حسنك احسانا

وفي القصيدة التي رثى بها نوت باشا وهي من احسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر

وقد يموت كثير لا تحسُّهمو كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

وشوقي يعارض بهذه القصيدة ابا خالد ابن محمد المهلبي في داليته التي رثى بها المتوكل وكان المهلبي حاضراً قتله هو والبحتري فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا انها من اجود ما قيل في معناها وبيت شوقي مأخوذ من قول المهلبي

انا فقدناك حتى لا اصطبار لنا ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا

اي لم يحسَّ موتهم أحد ولكن البيت غير مستقيم لان الذي يموت فلا يفقد هو الخالد الذي كأنهُ لم يمت فاستخرج شوقي المعنى الصحيح وجعل العدم الذي هو آخر الوجود في الناس اول الوجود وسطه وآخره في هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا

* * *

والى ما علمتَ من قوة هذه الشاعرية ردفتها فيما تتأتى له وعجمتها بالمعاني النادرة مستخرجةً استخراج الذهب مصقولة صقل الجوهر ممدلة بالفكر موزونةً بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء وغرةً كغرة الاحداث حتى لتحسب أن طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لاعيةً هازلة أو كأن للرجل شخصيتين كما يقول الاطباء فهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصاً وعلواً ونزولاً او قل هي العربية واليونانية في ناحية من نفسه والتركية والشركسية في ناحية أخرى. لتلك الابتكار والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويل والمبالغة والخلط ، وشوقي هو بهما جميعاً تفتنهُ القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوة وتخدعه الضعيفة فيعجب بها اعجاب الرقة . كما أعجب ببيته الذي قالهُ في الحنين إلى الوطن من قصيدته الاندلسية الشهيرة

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ولم يفطن أحد إلى فساده وسخافة معناه فان الخلد لا يكون خلداً الا بعد فناء الفاني من الانسان وطبائعه الارضية وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية . فكأن شوقي يقول: لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين الى شيء من ذلك فاني على ذلك أحن إلى الوطن الذي لا

وجود لهُ في نفسي ولا في نفسهِ . . . . وهذا كله لغوٌ . . . . ولنعد بعد من قول ابن الرومي

وحبَّبَ أوطانَ الرجالِ اليهمو مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمو عهودَ الصبى فيها فحنُّوا لذلكا

ومنازعة النفس هي الحنين ومعنى ابن الرومي وان كان صحيحاً غير انه لا يصلح لفلسفة الرمنتية في زمننا

وان في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناته احدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه اليه تركيته ولا مبالغة في الدنيا تقاربها كقوله بعض شعرائهم ان النملة زفرتها جففت الأبحر السبعة . . . وهو اغراق سخيف لا يأتي بخيال عجيب كما يتوهمون بل يأتي بهذيان عجيب . واذا كان الصدق يأنف من الكذب فان الكذب نفسه يأنف من هذا الاغراق . ومن هذه التركية في شوقي إضافات وهمية هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار ؛ قطعة فيه ودليل عليه وآخر لا أراه ولا محل لها في ذوق البلاغة العربية كقوله

(عيسى الشعور) إذا مشى رد الشعوب الى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه

ولو زُكِّيتَ غيبٌ (عمرو الامور) وأخلى المنابرَ سحبانُها

ويدخل في جنايات هذه التركية على شعره تكراره الاسماء المقدسة والاعلام التاريخية كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع في نظمه ولا تجده اكثر ما تجده إلا ثقيلاً مملولاً وهذه الالفاظ عندنا قلنسة لا محل لها الآن فهي احياناً تكون السحر كله والبلاغة كلها على شرط أن يكون القلب هو الذي وضعها في موضعها وأن لا يضعها إلا على هيأة قلبية فيكون كأنه وضع نفسه في الشعر ليخلق خلقه الحي في بضعة الفاظ وهذا ما لم يحسنه شوقي . والعيب الثاني ان الفاظ شاعرنا لا يثبت اكثرها على النقد لضعفه في الصناعة البيانية ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه واعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وان فسدت بها البلاغة والشعر . أنظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير

قالوا الحماية زالت قلتُ لا عجب قد كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

قلنا فاذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقية ما ذنب او يد او رجل فان هذه البقية في لغة السياسة التي تنقد الالفاظ وحروفها ونقط حروفها . . . . لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً بل هي (رأس الحماية) بعينه . . . . على ان شوقي انما عكس قول الشاعر

لا تقطعنَّ ذنب الأفعى وترسلها ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

وهذا كلام على سياقه من أنقل فما غناء قطع ذنب الأفعى اذا بقي رأسها وانما الافعى كلها هي هذا الرأس

ولقد ظهر لي من درس شوقي في ديوانه أمر عجبت له فاني رأيته يأخذ من ابي تمام والبحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم فربما ساواهم وربما زاد عليهم حتى اذا جاء المتنبي وقع في البحر وأدركه الغرق لانهُ نشأ على رهبة منهُ كما تشير اليهِ عبارته في مقدمة ديوانه الاول . وقد وصف خيل الترك في قصيدة انفرد بقوله :

والصبر فيها وفي فرسانها خلقٌ ... توارثوهُ أباً في الروع بعد أب
كما وُلدتم على أعرافها وُلدت ... في ساحة الحرب لا في باحة الرحب

وشعره هذا كأنهُ يرتعد امام قول المتنبي :

اقلتها غُرَرُ الجياد كأنما ... أيدي بني مروانَ في جبهاتها
الثابتين فروسةً بكرودها ... في ظهرها ، والطعنُ في لبّاتها
فكأنها نُسجتْ قياماً تحتهم ... وكأنهم وُلدوا على صهواتها

فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر . وقال في (صدى الحرب) يصف مدافع الدردنيل :

قذائفُ تخشى مهجةُ الشمس كلما ... علت مصعداتٍ أنها لا تصوبُ
اذا هبَّ حاميها على السفن انثنتْ ... وغانمها الناجي فكيف المخيَّبُ ؟

وهذا الاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك لانهُ اذا كان الناجي غانماً فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة . والكلمة الشعرية في هذا كله هي قوله (وغانمها الناجي) وهي كاطارية تتوارى خوفاً من بيت أبي الطيب

أغرُّ أعداؤه اذا سلموا ... بالحرب استكبروا الذي فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك . على اني اشهد ان في قصيدة (صدى الحرب) ابياتاً هي من اسمى الشعر وكأن شوقي رحمهُ الله كان ينظم هذه القصيدة من ايمانه ومن دمه ومن كل مطامع دنياه وآخرته . يبتغي بها الشهرة الخالدة في الناس والمنزلة السامية عند الخديوي ونباهة الشأن عند الخليفة والثواب عند الله تعالى . ولو هو في اثناء عملها اسقط نصفها او اكثر لجاءت قريدة في الشعر العربي غير ان الحرص كان يغتره وكان طول عمره مفتوناً بشعره فجاء في هذا الشعر بالطم والرم كما يقولون . وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البياني لما رضي ان يكون ذلك في شعره . وليت شعري كيف غاب عن مثله ان التهويل والاغراق والاحالة مما يهجّن الشعر ويذهب بأثره في النفس ويحيله الى صناعة هي شرٌّ من الصناعة البديعية لان هذه تكون في الالفاظ والالفاظ تحتمل العبث البديعي ويخرج بها الامر الى ان تكون ضرباً من الرياضة كمعاناة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركيباً وحلاً ، ولكن المعاني لا تحتمل ذلك اذ هي تفكير لا يلتوي الا فسد والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب ان تكون فيها مزية بخاصتها من الجمال والبيان وان تكون أخيلتها هي الحقائق التي أول مواضعها فوق حقائق البشر

ان الخيال الشعري يزيغ بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها مسوخة مشوهة ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها وقلك من معجزاته اذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى

ولعلماء الادب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا تعدوا إلى سرها. قالوا أعذب الشعر أكذبه يعنون إن قوام الشعر المبالغة والخيال ولا ينفذون إلى ماوراء ذلك وما وراءه الا الحقيقة واثمة بصدقها وجلالها . وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذب على الحواس الانسانية وإن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعري في الحقيقة اذ تنقل الشيء على غير ما هو في نفسه ليكون شيئاً في نفوسنا فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما. وما هي خمرة الشعر مثلاً ؟ هي رضاب الحبيبة . ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى .. لرأى مستنقعاً صغيراً .... ولو كان هذا المجهر لضعاف الاضعاف مما يجهر به لرأيت ذلك الرضاب يموج عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تحس بنفسها ولكن أخفاها التدبير الالهي بأن جعل رتبتها في الوجود وراء النظر الانساني رحمة من الله بالناس. فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسر الحياة. وهذا المعنى كان الشعراء النوابغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع

ومن سخيف الاغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل وهي ابيات يظن هو انه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الاغراب :

فلو أن أوطاناً تصوَّر هيكلاً دفنوك بين جوانح الاوطان
لو كان يحمل في الجوارح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعدُ رُثيت في القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات .... ونصور انت ميتاً يحمل في الجوارح فيترمم فيها ويبلى .... وما زال الشاعر في ابياته يخرج من طامَّة إلى طامة . حتى قال رثيت في القرآن . ولو سئلت أنا إعراب (لو) في هذه الابيات لقلت انها حرف نقص وتلفيق وعجز .... وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل والله تعالى يقول فيه «اليوم أكملت لكم دينكم» . والامر أمر دين قد تم وكتاب مقدس ختم ونبوَّة انقضت والشاعر ماض في غفلته لم يتنبه لشيء ولم يدر انه يفرض فرضاً يهدم الاسلام كله بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية . وشوقي في الحقيقة كامل كناقص وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصاً هذا النقص كله ويكمل

وفي الشوقيات صفحات تكاد تتردّ تغريداً وفيها صفحات أخرى تنقُّ نقيق الضفادع . وفي هذا الديوان عيوب لا نريد أن نقتصها فإن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه اذا ذهبنا نأتي بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها . ولكن من عيوبه في التكرار ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية وهو هذا البيت:

وانما الامم الاخلاق ما بقيت ... فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

بزهذا البيت: وانما الامم الاخلاق ما بقيت ... فان تولت سعوا على آثارها قدما

بل هو هذا: كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم ... ويذهب عنهم امرهم حين تذهب

بزهو هذا البيت: ولا المسائب اذ يرمى الرجال بها ... بقاتلات اذا الاخلاق لم تصب

وقد تكرر (فيما قرأته في ديوانه) ثلاث عشرة مرة فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جعل الشاعر رقعة ثم رقعة حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرقع .... والبيت الاول من العيّن النادر ولكن افسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوقي أو ضعف الحس البياني، او ابتذاله الشعر في غير موضعه، او رهن فكرته الفلسفية من جوانب كثيرة. وهذه الاربعة هي الابواب التي يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا ولو هو كان قد حصّنها بأمدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية الى اليوم ولكان عسى ان ينقل الشعر الى طور جديد في التاريخ. ولكن الفوضى وقعت في شوقي من اول امره فأرسل الى اوربا لدرس الحقوق وكان الوجه ان يرسل لدرس الآداب والفلسفة، وغامر في سياسة الارض وكان الحق ان يشتغل بسياسة السماء وتهالك في مادة الدنيا وكان الصواب ان يتهالك في معانيها

ان الفوضى ذاهبة بنا مذاهبها في الادب والشعر. فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه ان يمثلها وحده فهو يخرج على النظارة في ثياب الملك فيلقي كلاماً ملكياً ثم ينتقل فيجيء في ثوب القائد فيلقي كلاماً حربياً ثم ينقلب فيعود في هيأة التاجر فيلقي كلاماً سوقياً ثم يروغ فيرجع في مباذل الخادم ثم . . ثم . . ثم يتوارى فيظهر في جلدة بربري . . . وهذه الفوضى التي اهملها الحكومة واهملها الامراء والكبراء هي حقيقة مؤلمة، لكن هي الحقيقة

* * *

وشوقي على كل هذا هو شوقي اول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراء وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف وهذه الناحية هي اقوى نواحيه. ولقد الهمتني قراءة البارع من شعره في اغراضه وفنونه المختلفة ان الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال ارواحهم وقوتها تجد الآداب لذتها فيهم وتموّها بهم، كأن الامر قياسٌ على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني فيكون في المعاني ما يعشقه بعض الناس. ومتى بلغ عشق المعنى لانسان مبلغ الاختصاص والوجد ظهر الفن ابدع ما يُرى كأن المعنى الادبي يتجمل ويتحبّب ليستميل هذا الانسان الحاكم عليه حكم الحب

فيا مصر لقد مات شاعرك الذي كان يحاول ان يخرج بالجيل الحاضر الى الزمن الذي لم يأت بعد. فاذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية وذكرت مجد شعرك الماضي فليقل اساتذتك يومئذ: كان هذا الماضي شاعراً اسمهُ شوقي